الفصل الثانى

التاريخ القديم — قصىّ — عبد المطلب — سطو الحبشة —
المولد النبوى — رسالة النبي (ص) — الهجرة

التاريخ القديم

يستقى المؤرخون معلوماتهم عن التاريخ القديم لجزيرة العرب من مصدرين هامين :

(١) القرآن الكريم .

(٢) الرواية الشفوية التى من عادة العرب فى جميع الأزمنة أن يتناقلها الخلف عن السلف .

وقد اهتم المؤرخون منذ القرن الثامن الميلادى وما بعده بجمع شتات تلك الآداب والروايات بالرغم من الصعوبات التى كانت تجابههم فى ذلك السبيل ؛ كما أن النقوش التى اكتشفها الأثريون فى جنوبى اليمن ، والرموز التى استطاعوا حلها فيما بعد تؤيد إلى حد بعيد تلك المعلومات والروايات .

قريش

والشعب الذى نعنى خاصة بدرس تاريخه وتتتبع تطورات حياته هو عرب الحجاز واليمن ، الذين حازوا منزلة سامية فى العصور الوسطى ، وقد اشتهرت من بين تلك القبائل قبيلة « قريش » المتحدرة من « فهر » الملقب « بقريش » ومعناها « تاجر » فى اللغة العربية القديمة ، وهو من أولاد « معد بن عدنان » من نسل إسماعيل عليه السلام ؛ وقد كانت هاته القبيلة تفتخر دائما بنسبها ، وتعتبر نفسها أشرف جميع القبائل العربية على وجه الإطلاق .

قصىّ

وفى القرن الخامس الميلادى تغلب « قصىّ » على أمر « مكة » وأصبح زعيم الحجاز دون منازع ، ولم تكن « مكة » فى الواقع حتى أوائل حكمه غير

قرية حقيرة مؤلفة من عدة أكواخ وخيم مبعثرة هنا وهناك ، فأعاد بناء الكعبة وشيد داراً خصص بهوها الكبير للشورى حيث يجتمع كبار قريش للتشاور فى أمورهم . ومن مآثره أيضاً أنه حمل شعبه على تشييد منازلهم بالحجارة حول الكعبة كما سن القوانين لحكمهم حكماً صحيحاً ، وجمع الضرائب وعين السقاية والرفادة للحجاج الذين كانوا يؤمون مكة من أنحاء الجزيرة فى أوقات الحج .

عبد الدار

ولما توفى « قصى » عام ٤٨٠ م ، ولى بعده ابنه « عبد الدار » الذى حمل لواء الزعامة ردحا من الزمن حتى أدركته منيته ، فنشب خلاف شديد بين أحفاده وبين أولاد أخيه « عبد مناف » حول من يتولى الحكم من بعده ، بيد أنهم أجمعوا أمرهم فيما بعد على حسم الخلاف بطريق اقتسام السلطة بينهم فجعلوها على النحو التالى :

(١) السقاية والضرائب لعبد شمس أحد أولاد عبد مناف .

(٢) السدانة والندوة والعقاب لأحفاد عبد الدار .

هاشم بن عبد المطلب

ولكن لم تكد تمضى مدة وجيزة حتى تنازل عبد شمس عن الزعامة لأخيه « هاشم » ، الذى كان تاجراً ثريا مشهوراً بإكرام الضيف واستقلال الشخصية ، غير أنه لم يلبث أن لاقى حتفه عام ٥١٠ م فآلت الزعامة من بعده إلى أخيه « مطلب » الملقب بالكريم . وقد توفى هذا أيضاً فى أواخر عام ٥٢٠ م فخلفه ابن أخيه عبد المطلب بن هاشم .

أمية

وبالرغم مما كان يتمتع به أحفاد عبد الدار من السعة والثراء فقد حسدوا بنى هاشم على رفيع مكانتهم وحاولوا أن ينتزعوا حكم مكة منهم ويستأثروا بالحكم دونهم ، فانحاز إليهم فى سبيل تحقيق تلك الغاية « أمية بن عبد شمس » الطموح النفس ، ولكن عبد المطلب برغم هذه المحاولات تمكن من الاحتفاظ بالزعامة نظراً لما كان يتمتع به من سمو المكانة وعلو الهمة ، فظل مضطلعاً بأعباء

الحكم فى مكة زهاء تسع وخمسين سنة ، يساعده فى تصريف الأمور رؤساء الأسر العشر الشهيرة .

عام الفيل

وفى عهد « عبد المطلب » أغار على الحجاز جيش جحفل من الأحباش بقيادة « أبرهة » الذى كان فى خلال زحفه على مكة يتخطى فيلاً ضخما لم يكن للعرب عهد به من قبل ، فعرف عام ٥٧٠ م الذى وقع فيه هذا الغزو « بعام الفيل » ؛ ولكن القوة المغيرة لم تلبث أن هلكت عن بكرة أبيها نظراً إلى انتشار مرض وبأى بين الجنود من جهة ، و إلى هبوب رياح شديدة وهطول أمطار غزيرة من الجهة الأخرى .

محمد (ص)

وقد كان « لعبد المطلب » أبناء و بنات كثيرون اشتهر منهم فى تاريخ العرب أربعة هم : عبد مناف الملقب « بأبى طالب » ، و« العباس » جد الخلفاء العباسيين ، و « حمزة » ، و « عبد الله » ، كذلك كان له ابن عم آخر اسمه « أبو لهب »[1] ذكره القرآن الكريم لاضطهاده المسلمين . أما عبد الله أصغر أولاد « عبد المطلب » فهو أبو النبى العربى تزوج من آمنة بنت وهب إحدى فتيات يثرب ، ووافته منيته وهو فى الخامسة والعشرين من عمره ، و بعد وفاته بأيام وضعت[2] آمنة ولدا أسماه جده « محمداً » ولكنها ماتت عنه طفلا فى السادسة من عمره فكفله جده الكهل الذى قبضه الله عام ٥٧٩ م . وكان قد أوصى به قبل وفاته إلى « أبى طالب » الذى خلفه فى حكم مكة ، فقضى « محمد » صلى الله عليه وسلم فى بيت عمه عهد الطفولة ، وكان رضىّ الشمائل ، رقيق الحاشية ، مرهف الحس ، فياض القلب ، محبوباً من إخوانه ومعارفه القليلين ، ولكنه مع ذلك لم يستمهد الراحة فى صباه ، إذ لم يكن عمه ثريا كأسلافه ، فقام بنوه وابن أخيه « محمد » برعاية الغنم .

---

(١) يقول فيه تعالى : « تبت يدا أبى لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى ناراً ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، فى جيدها حبل من مسد » . (المعرب)

(٢) ٢٩ آب سنة ٥٧٩م .

وكان (صلى الله عليه وسلم)[١] منذ صباه ينزع إلى التأمل والتفكير، فسافر مرتين مع عمه «أبى طالب» إلى الشام حيث شاهد بنفسه ما كان عليه أهلها وقتئذ من الانحطاط الخلقى والانقسام فى الدين، ولخمس وعشرين سنة من مولده تزوج من خديجة المشهورة فى تاريخ العرب بنبل أخلاقها وحميد خصالها. فولد لها عدة أولاد، توفى الذكور منهم فى سن الطفولة. أما البنات فقد أمد الله فى أعمارهن حتى رأين جسام الحوادث التى تخللت حياة أبيهن، وقد تزوجت صغراهن «فاطمة» الملقبة «بالزهراء» من على بن أبى طالب، وكانت آية فى الجمال والذكاء والظرف، ولهذا سميت «بالزهراء».

قضى «محمد» صلى الله عليه وسلم بعد زواجه خمسة عشر عاما فى حياة هادئة، لم يظهر خلالها فى الحياة العامة إلا مرة أو مرتين: الأولى لإحياء المجلس القديم «دار الندوة»، الذى كان قد تأسس فى الأصل لإنصاف المظلومين، وإيواء الغرباء، وحماية الأرامل والأيتام. والمرة الثانية: لكى يحسم النزاع[٢] الذى كان قد نشب بين زعماء العرب، وكاد يؤدى إلى نتائج خطيرة، لولا سرعة خاطره وحدة ذكائه.

ومع أن هذا هو كل ما نعرفه عن حياته الأولى، إلا أننا نعلم علم اليقين أن وداعته وطهارة قلبه وحبه للواجب وأمانته كلها أكسبته محبة مواطنيه حتى لقبوه «بالأمين»، وكان من أخص صفاته كلفه بالصغار الذين كانوا كلما رأوه التفوا حوله فرحين مهللين. ويقال إنه لم يكن ليمر بهم قط دون أن يحييهم بابتسامته الوديعة؛ كذلك كان يقضى شهراً واحداً من شهور السنة فى عزلة التأملات

(١) لقد كان سيدنا محمد (ص) أكرم الناس خلقاً، متواضعاً، حليما، كريماً، شهماً، غيوراً، مقداماً، جلداً، بعيد النظر، عادلا، متسامحاً؛ ولقد أجل القرآن الكريم وصفه فى قوله: «وإنك لعلى خلق عظيم». (المعرب)

(٢) اختلف أشراف مكة أيهم يضع الحجر الأسود مكانه فى الكعبة فحكم الرسول بينهم وأرضاهم بأن وضع الحجر فى ردائه وطلب إليهم جميعاً أن يرفعوا الرداء. (المعرب)

الروحية فى غار « حراء » بضواحى مكة . ومن المعلوم أنه بينما كان نائما ذات ليلة فى ذلك الغار خاطبه[١] ربه أن يقوم و ينذر الناس ، ومنذ ذلك الحين قصر حياته على انتشال الناس من دركات الهوان وحضهم على ترك الشرور والآثام ، وتعليمهم ما لهم وما عليهم من الواجبات .

الرسالة

وكان أول من آمن برسالته زوجته « خديجة » ، ثم على بن أبى طالب ، وأبو بكر ، وحمزة ، وعثمان ؛ ولكنه ما كاد يجهر بالدعوة حتى سخرت منه قريش ، وطفقت تسومه صنوف العذاب ، وتفتك بأتباعه حتى اضطر بعضهم أن ينزح إلى الحبشة ، بينما ظل البعض الآخر يلازمه متحملا فى ذلك كل أذى بصبر جميل . وعلى أثر وفاة « أبى طالب »[٢] و « خديجة » من بعده بالغت قريش فى اضطهادها حتى يئس الرسول من أن يصيب نجاحا بينهم وحول وجهه شطر الطائف ، غير أن أهلها حصبوه فعاد أدراجه حزيناً مهموما ، وراح يقصر همه على الأغراب الذين كانوا يؤمون « مكة » فى أوقات الحج لعله يجد بينهم من يستمع إلى قوله فتكلل سعيه بالنجاح ، وآمن به نفر من أهل يثرب ، ثم بايعوه على الإسلام على ألا يشرك أحدهم بالله شيئاً ، ولا يسرق ، ولا يزنى ، ولا يقتل أولاده ولا يأتى ببهتان يفتريه بين يديه ورجليه ، ولا يعصيه فى معروف فإن وفى ذلك فله الجنة ، وإن غشى من ذلك فأمره إلى الله إن شاء عذب وإن شاء غفر[٣] . وعندما رجع هؤلاء إلى مدينتهم طفقوا يذيعون خبر ظهور

---

(١) نزل عليه الوحى يناديه : « اقرأ ، فقال : ما أنا بقارئ ، فكررها عليه مرتين ، ثم قال : اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم » . (المعرب)

(٢) كانت قريش قد شكته إلى عمه أبى طالب فنصح له . فقال الرسول : « والله يا عمى لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما فعلت حتى يظهره الله أو أهلك دونه » . (المعرب)

(٣) لقد تحدته قريش بأن يأتى بالمعجزات فنزل قوله تعالى : « قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا » وجعل الرسول صلى الله عليه وسلم يتلو عليهم القرآن وهو أقوى =

ذلك النبي الجديد الذى جاء لهدايتهم . وفى عام ٦٢٢ م عند حلول موسم الحج أرسلوا إليه وفداً يدعوه للعيش بين ظهرانيهم فأثارت تلك الدعوة سخط قريش وزادت فى لهيب المنازعات التى كانت تستعر وقتئذ بين المدينتين ، وفر عدد غير ضئيل من المؤمنين إلى يثرب ، فراحت قريش تدبر مؤامرة لاغتيال الرسول (ص) وكان قد تخلف فيها مع أبى بكر وعلى بن أبى طالب ، ولكنه ما أن علم بما بيتوا له حتى أسرع هو وأبو بكر إلى غار[1] على مقربة من مكة ، كذلك كان قد أوعز إلى « على » أن ينام فى فراشه لكى يضلل الأعداء ويؤخرهم عن اللحاق به . فلما بلغهم خبر فراره استشاطوا غضباً ، وراحوا يبثون العيون والأرصاد للقبض عليه ، ولكنه أقام هو وصاحبه بالغار يومين كاملين ؛ وفى اليوم الثالث ركبا راحلتين إلى يثرب ، فوصلاها يوم الجمعة ٢ تموز سنة ٦٢٢ م ، وبعد قليل لحق بهما « على » ، وقد أرخ المسلمون سنتهم بالهجرة ، وأصبحت تدعى السنة الهجرية .

الهجرة

= معجزاته وبلغ من غلو قريش فى العناد والجحود أن قالوا بلسان القرآن : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أوائتنا بعذاب أليم » . (المعرب)

(١) وفى مطاردة قريش « لمحمد » وفى قصة الغار نزل قوله تعالى فى سورة التوبة : « إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ؛ فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم » . (المعرب)